اللغة العربية في الماضي والحاضر*

الأستاذة الدكتورة نهاد العطار

أرحب بكم أبلغ ترحيب، على اسم الثقافة العربية ولأجلها، حين هي وهجاً في الحرف كانت، وحضارة في اللسان ازدهرت، ووحياً بلغتها تنزّل، فإذا هي النطق المبين، ديناً للهدى، وبياناً للسحر، ورابطة مع أسلافنا الذين من مطلع الشمس إلى مغربها، قطعوا رحلة ولا أكبر، في المسيرة البشرية،

فكانوا الشهب حين الأرض ليل
وحين الناس جدُّ مضللينا
مشت بمنارهم في الأرض روما
ومن آثارهم قبست أثينا

أيها السادة

نحن أبناء أمة تحمل إرثها في دمها، وفي ذاكرتها، وفي لغتها المشحونة بهذا الموروث العظيم.

ولغتنا هي هويتنا، ونحن المؤتمنون عليها، واللغة عندما تصبح هوية، تصبح هي الحضارة والثقافة والفكر والأدب، بل تغدو المعطى الوجودي الأشد أهمية في حياة الأمة، والحلقة المركزية التي تعكس خصائصها، وتربط بين أجيالها، فهي ليست لغة فحسب، وإنما هي تراث وضمير وتكوين نفسي وعقلي ووطني، وانتماء إلى تاريخ، وسياج دفاع عن الذات والقيم والمقدسات بروح من الشهامة والوفاء، لإرث حضاري كان بعضاً من رسالتنا إلى الدنيا، ومن إسهامنا الخلاق في بنيان العالم.

---

* في افتتاح المؤتمر السنوي العاشر لمجمع اللغة العربية

وإذا كانت اللغة هي الوحدة الكيانية في صميم تكوين كل أمة، وهي الضمير الجماعي لها، الناظم لتماسكها ولنسيج حياتها الإنسانية، وجوداً وتنامياً، ولإرادتها الكلية، فإن اللغة العربية، كما الثقافة العربية، هي فوق ذلك، الرابطة القومية الأصيلة، بل هي الوحدة والآصرة والعروة الوثقى التي صمدت واستعلت، وحققت انتصارها، في وجه كل المحاولات التي استهدفتها، حين استهدفت تغييب الثقافة العربية بعامة، واستلابها أهم مقوماتها: اللغة العربية.

وظلت اللغة العربية التي تنزّل بها الوحي العظيم، وصيغت الآيات البينات الرائعات، والتي تشكل أهم مكونات قوميتنا العربية، ظلت الجامع والحافظ للتراث العربي، ماضياً وحاضراً، واللسان الذي يوحد أبناء أمتنا جميعاً، ويشد بعضهم إلى بعض، كالبنيان المرصوص، ويضمن لهم وحدتهم الثقافية، على مدار القرون، ويضفر عزائمهم في طريق الكفاح، وفي مواجهة الحقب المظلمة من التاريخ.

وينبغي ألا ننسى أن لغتنا العربية لم تسقط يوماً في الجمود والانغلاق، واستطاعت أن تواكب فعلاً العصور كلها التي مرت عليها، وأن تكون لغة كل عصر، بكل معطياته، وبما في ذلك مراحل الوهن من تاريخها، لتحقق انتصارها الرائع، وقدرتها الفائقة على نقل كل ألوان الحداثة وعلومها، وفلسفاتها في أشكالها الأكثر ثورية ومصطلحاتها المرتبطة بجديد مفاهيمها، وما ترجم من كتب، واستخدم من تقنيات المعلوماتية، يصلح شاهداً على ذلك.

لا أريد أن أطيل، لكنني في النهاية أتوجه إلى كل الذين انساقوا وراء مفاهيم خاطئة، هي نتاج غزو فكري أجنبي، مكشوف أو مقنع، اتجه بنا تحت اسم الحداثة، أو العصرنة، إلى طرح الأمور طرحاً خاطئاً، قد يسهل السقوط على أعتاب نمطيات (كليشيهات) مغادة أو مستعادة، تتنكر للتراث، واللغة من أهم مكوناته، في سخرية مارقة، مدعية أن اللغة تشكل عائقاً أمام التقدم، بما لا يسمح ببناء مستقبل أكثر تطوراً، وهنا المفارقة، ومن هنا يأتي الإصغاء الحالم، إلى توصيات دوائر أجنبية،

ومؤسسات تملي علينا ضرورة التخلي عن لغتنا في التعليم، إذ لا سبيل إلى الدخول في العصر إلا باستخدام لغات الدول العظمى، بل الدولة الأقوى ومنذ المراحل الأولى، حتى ينشأ أبناؤنا في إطار معارف العصر.

أيها السادة

إن ما هو مطلوب منا، في وجه هذه الأطروحات، أن نكون أشد وعياً وحذراً، من انبتات جذورنا الحضارية الباهرة، وإضاعة كنزنا الثقافي، وإحداث قطيعة معرفية بين تراثنا وراهننا، وتغريب تذوب معه الشخصية الوطنية العربية، ويحكم، على أوطاننا، باغتراب الفئة المتعلمة فيها عن مواطنيهم، وبالتعثر في الإبداع، والسقوط في حال من الضياع إذا هم أغفلوا لغتهم، وتعلموا بلغة الغير وحدها، مما يمنع عليهم الاندماج الاجتماعي والسياسي والثقافي، أو إمكان الإسهام في خلق نموذج عربي للتحديث الفكري والعلمي، في مجتمعاتهم التي تسعى إلى تحقيق نهضتها غير المنبتة، أو المنقطعة عن الجذور.

إن ما هو مطلوب منا هو ألا نسمح بعزل لغتنا، ووضع الحواجز أمام انطلاقها، أو إعطائها كفاء ما تستحق منا، تحت أي ذريعة من ذرائع تزييف الوعي، تتهمها، جهلاً وزوراً، بالقصور، وبعدم القدرة على أن تكون لغة علم، أو لغة فكر، مما يعني الحكم عليها بالتوقف أو الجمود، هي التي أبدع فيها المبدعون ولا يزالون، في شتى ميادين الفكر والعلم، ونقل المترجمون وينقلون إليها، أبلغ النصوص العلمية والفلسفية، المرتبطة بالمعارف المتطورة.

* * *

أيها المجمعيون — يا حراس اللغة في وطننا العربي الكبير والماجد

المسافات بين الأهل، للأسف، تتباعد والمراوغات الدولية، بأشكال عدوانها، تتمادى، والأرض نهب، وحقوق الشعوب كلمات لا تحمل دلالاتها، وحرياتها مغيبة، والإحساس الفوقي في غلوائه، وأمتنا العربية تحتاج إلى الحفاظ على مصداقية توجهها،

وإلى تعزيز الإيمان بلغتها التي صار القابض عليها كالقابض على الجمر، وعلى اسم العلم والحداثة ترتكب بحقها خطايا لا حدّ لها..

أيها المجمعيون الأكارم

الضيوف الأعزاء

أحييكم في مؤتمركم هذا، وأنتم حملة الرسالة، مع كل المعنيين، متمنية أن نعمل جميعاً جاهدين على متابعة النهج الصحيح، وأمامكم في سورية، بلدكم الذي تحبون، تجربة طويلة متقدمة ذات مصداقية، وهي جديرة بالمتابعة..

ولعلي أغتنم الفرصة لأشيد بالدعم الكبير الذي تلقاه لغتنا من السيد رئيس الجمهورية -بشار الأسد، القائد الوفي لشعبه، المخلص لأمته، الحكيم في اتخاذ قراراته، الحريص على بناء نهضة ثقافية ترتقي بالوطن، وتحيله إلى دولة حديثة.

لقد كان للغة في تفكيره حيز كبير، تجلّى، وأنتم تعرفون، في قرار مؤتمر قمة دمشق الذي يخص اللغة العربية والذي كان تالياً لقرارات أخرى اتخذها، طليعتها المشروع القومي للتمكين للغة العربية، والاهتمام بتجديد مجمع اللغة العربية، وبرفع التغريب عن مدننا التي أراد لها أن تكون قلاع صمود، وموئل قلم، ونبت وعي أصيل، بدور الثقافة في تقدم الأمم، ودور اللغة في تحصين الوعي.

دون أن ننسى أننا في زمن النار فيه على حدودنا، والخطر يتهدد وجودنا ومصيرنا، من جراء طمع الامبريالية بنا، وهجمتها المتواصلة لفرض هيمنتها علينا. لقد نجحت في تمزيق صفوفنا، وإخراج بعض بلداننا من خندق كفاحنا، مما جعل أقطارنا تواجه أوضاعاً حرجة مربكة في هذه البقعة أو تلك من ديارنا، لكن أمتنا العربية رغم كل هذه الترديات مازالت تعيش كفاحاً باسلاً طويلاً عزيزاً مقتدراً، مؤمنة بضرورة المزيد من التنسيق، والوفير من التضامن، مما يعطي لجبه التحديات وردع الاعتداءات وتحرير الأرض واسترداد الحقوق دفعاً قوياً يؤهلها للظفر المرتجى في معركتها، معركة

الوجود، معركة المصير، معركة الصراع العربي الإسرائيلي، والأحلاف الموجهة ضد أمتنا العربية كلها لا ضد سورية وحدها.

وسيكون النصر في النهاية معقود اللواء لها، لأنها أمة خلقت للحياة، وأثبتت في تاريخها الطويل جدارتها بهذه الحياة.

وأخيراً، أيها الإخوة الأعزاء، أتمنى لمؤتمركم النجاح، والقدرة على الإسهام في الانتصار للعربية، وفي استرداد دورها التاريخي الكبير، في البلدان العربية، لتظل في ثوابت الأمة، مشعلاً في قبس الفكر العظيم.